قَصِيدَة

(رَسَالَةُ فِي لَيلَةِ التَّنفِيذِ)

لِهَاشِمِ الرَّفَاعِي

دراسة نقدية نفسية.

أ.م. د. إحسان برهان الدين

قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) لهاشم الرفاعي دراسة نقدية نفسية

ID No. 762

(PP 27 - 44)

https://doi.org/10.21271/zjhs.27.5.3

إحسان برهان الدين أمين

جامعة حلبجة

ihsanburhanadden@gmail.com

الاستلام: 2022/11/22

القـبـول: 2023/01/24

النـــشر: 2023/10/15

ملخص

يتناول هذا البحث تحليل قصيدة " رسالة في ليلة التنفيذ" للشاعر المصري هاشم الرفاعي وفق المنهج النفسي، حيث تصور القصيدة التي تربو أبياتها على السبعين بيتاً، مشاعر سجين محكوم عليه بالإعدام يكتب رسالة إلى والده في الليلة التي تسبق تنفيذ الحكم عليه، وقد حوت القصيدة على الكثير من المشاعر الإنسانية والعواطف المتأججة المنبثقة من الموقف الذي تم تصويره مما جعلها جديرة بتسليط أضواء الدراسة عليها من الناحية النفسية، وقد تم التطرق قبل ذلك إلى نبذة عن حياة الشاعر من لدن ولادته إلى مماته، وكذلك تم تسليط الضوء على القصيدة من الناحية العروضية لبيان مدى انسجام البحر الشعري مع المضمون الذي تناوله الشاعر, على اعتبار أن البحور الشعرية تحمل خصائص فنية تتوافق مع بعض الأغراض الشعرية أكثر من غيرها.

الكلمات المفتاحية: المنهج، البعد النفسي، ، تحليل، ، حديث النفس، المبادئ، علم العروض، المشاعر.

1.مقدمة

يمر الإنسان في مراحل حياته المختلفة بحالات من التموجات العاطفية، ما بين هيمنة الأحزان عليه تارة، وتوارد المسرات عليه أخرى، ذلك أن الطبيعة الانسانية لا تستقر ولا تثبت على حالة نفسية واحدة، والأدباء ولا سيما الشعراء، أقدر الناس على التعبير عن تلك التحولات التي تنتاب النفس الإنسانية، وتتمظهر في صور من الأفراح و الأتراح والانفعالات النفسية المتباينة. وعلى ذلك فالنص الأدبي وفق المنهج النفسي إنما هو نتيجة للمعاناة التي تعتمل في نفس الشاعر، والحالات الإنسانية التي يمر بها، فيتمخض عن ذلك صورة صادقة تنبثق من وجدان الشاعر ومعاناته..

إن العلاقة بين النص الأدبي وعلم النفس هي علاقة تفاعلية في الصميم، تمتد في عمق الزمان فلا يكاد يُعرف أدب معدومة الأواصر مع النفس الإنسانية، ولا غرو في ذلك، فأحد أبرز مجالات الأدب في أصله هي التعبير عن النفس الإنسانية بما يعترك فيها من المشاعر السعيدة و الحزينة، وبما يحتدم فيها من الأحاسيس المرهفة و المعاني النفسية المركوزة في أعماقه، فسلوكه بما في طياته من العجائب و المتناقضات، وأنماط الشخصيات الإنسانية وأنواعها المختلفة ،كل ذلك مما يُعد ساحة فسيحة لعلم النفس يعمل عليها الأدب معبراً عن حقائقها ومحلقاً في عالم الخيال عن أبعادها .

هذه الورقة البحثية محاولة لرصد جانب من تلك الحالات النفسية والإنسانية التي سجلها الشاعر في قصيدته، وقد كان سبب اختيار تلك القصيدة تحديداً، لأنها ترصد حالات إنسانية دقيقة بأسلوب أدبي رفيع, مما يجعلها محط اهتمام الدارسين ومن منظورات شتى، إن دراسة القصيدة من جوانب متعددة ومنها الجانب النفسي تُعد أمراً من الأهمية بمكان، ولذلك كان للجانب النفسي للشاعر أهمية كبيرة في ولادة النص الإبداعي لديه؛ فلم تكن قصيدته إلا نتاجاً لمعاناة مريرة مر بها وأحسّ بوطئتها، كما كان من جوانب الأهمية في دراسة القصيدة وجود ألفاظ وتعابير موحية فيها مستورة بلاشعور الشاعر بعد أن كانت مستقرة في دائرة شعوره.، فمن المثير للمتلقي أن أن يتعرف على مشاعر وأحاسيس تختلج في صدر انسان يكون مع الموت قاب قوسين أو أدنى، حيث يرصد الشاعر أحاسيس سجين محكوم عليه بالإعدام، يستغل آخر أوقاته في الحياة لكتابة رسالة إلى والده، ليبثه مشاعره و انفعالاته . إن الفائدة المرجوة من هذه الورقة البحثية هو الوصول إلى مدى صدق الشاعر في تصويره لحالة إنسانية مشحونة بالرهبة يهابها الناس ويستعظمونها، والشاعر بوصفه إنساناً يشترك مع غيره في تلك المشاعر، لكنه يفوقهم بوصفه قادراً –او من المفروض أن يكون قادراً- على تجسيد تلك المشاعر و الأحاسيس .

لقد كان صدق الشاعر -فيما بدا للباحث – في قصيدته، وتصويره لانفعالاته المتعددة و المتباينة تأثيراً في اختيار النص للدراسة، فلقد سما الشاعر وأبدع في إبراز الحالات النفسية و التركيز على المشاعر الإنسانية تارة، وربط ذلك بالجانب الفكري و المنهجي تارة أخرى، مما أضفى على القصيدة هالة من الأهمية، جعل أنظار الدارسين والنقاد لا يتحول عنها، على الرغم من انقضاء قرن من الزمان على ميلاد القصيدة.

وقد دار البحث في جملته حول التأكيد على دراسة نفسية لقصيدة الشاعر هاشم الرفاعي " رسالة في ليلة التنفيذ" وقد رأى الباحث ضرورة للتعريف بالشاعر بوصفه صاحب العمل الأدبي موضع الدراسة من جهة، ومن جهة أخرى لما يؤكد على ضرورته الدارسون فيما يخص أهمية معرفة صاحب العمل في المنهج النفسي، فتم التعريف بالشاعر هاشم الرفاعي بإيجاز، من خلال الإشارة إلى جوانب من سيرته الذاتية ونتاجاته الأدبية. كما تم التطرق إلى تعريف بالمنهج النفسي من خلال توضيح مفهوم المنهج النفسي ومنطلقاته و أهمية المبادئ التي استند عليها. وكان ذلك بمثابة التمهيد للولوج إلى أصل موضوع البحث وهو عبارة عن دراسة نفسية لتلك القصيدة. ثم كانت الخاتمة حيث لُخصت النتائج التي تمخضت عنها هذه القراءة لقصيدة هاشم الرفاعي.

أن الهدف الذي يتوخى الباحث تحقيقه من وراء هذه الورقة البحثية هو تسليط الضوء على الحالات النفسية المختلفة التي سجلها الشاعر في تضاعيف قصيدته، و ما اعترت أجواء القصيدة من الأحاسيس والعواطف الإنسانية. هذا وأسأل الله العلي القدير السداد والتوفيق إنه ولي ذلك والقادر عليه.

لم يهدف الباحث للالتزام التام بالمنهج النفسي كأي بحث في حقول علم النفس، ولا كان ذلك هدفاَ أوحداً جعله في أولوياته بالضرورة، بقدر ما سعى للاستفادة من ذلك المنهج و توظيفه في إطاره الطبيعي دون مبالغة، والسعي إلى إبراز بعض الجوانب الإنسانية والأحاسيس المنبثقة من أعماق الشاعر رآها الباحث جديرة بالرصد، ولذلك كان للمنهج التحليلي أيضاً حضور فرضته طبيعة الدراسة إذ احتوت على إبراز الدلالات المستوحاة من النص والتركيز على جوانب الجمال فيه، وقدرته للوصول إلى الغاية المنشودة، إضافة إلى وجود النقد و الاستنتاج حالما يستدعي النص ذلك، وعلى ذلك فالمنهج النفسي تم الاستعانة به ولم يكن المحور الوحيد الذي دار موضوع الدراسة حوله بدءاً وانتهاءاَ. وقد استفدنا من أساتذتنا أن المنهج النفسي هو منهج سياقي هجره النقد المعاصر بوصفه يحد من تقييم المبدع في عمله إذا كان هو المنهج الوحيد المتبع في الدراسة وبالآليات القديمة ذاتها، إذ إن النقد المعاصر أعاد توظيف المنهج النفسي في سياقات جديدة داخل المناهج الحديثة، وهذا ما ارتأى الباحث القيام به، وهو الاستعانة بما في ذلك المنهج وفق ما يراه الباحث ضرورة و الإعراض عما لا يفيد البحث صفحاً.

هذه الدراسة وإن لم تعتمد اعتماداً كلياً على المنهج النفسي، ورغم أن الباحث لم يجد بحثاً يتناول الجانب النفسي في قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) بصورة خاصة، إلا أن آصرة قوية تربطها بذلك المنهج من خلال الاستعانة ببعض مصطلحاته و جوانب التحليل المتعلق به، وقد كانت الدراسات الرائدة في هذا المضمار بمثابة النماذج التي يحتذيها الباحثون أشبه بالمنارات على طريق البحث العلمي، أذكر منها دراسة عباس محمود العقاد الشهيرة عن ابن الرومي الموسومة بــ (ابن الرومي حياته من شعره) ، وكذلك دراسة محمد النويهي (نفسية أبي نواس).

هذا وأسأل الله في عليائه السداد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

1.2. نبذة عن الشاعر وقصيدته

هو سيد بن جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعي، تربى على يد والده وأخذ عنه العلوم الدينية، وحفظ القرآن الكريم، . وجده هاشم، كان من الأفاضل، العلماء، تلقى العلم عن والده في الأزهر، وكان يطوف على تلاميذه ومريديه في الأقاليم ويفقّه الناس في الدين، ويُدرّس شروحَ البخاري،(الرفاعي، 1985، ، 15-16) . ولدفي بلدة أنشاص بمحافظة الشرقيَّة بمصر عام 1935م، وقد نشأ في بيئة إسلاميَّة، تلقَّى مبادئ اللغة والدين في بلده، وحَفِظَ كثيراً من القصائد. التحق بمعهد الزقازيق الديني سنة (1366هـ/ 1947م)، وأكمل دراسته الثانويَّة فيه سنة (1375هـ/ 1956م). توجَّه إلى القاهرة وانتسب إلى كلِّيَّة دار العلوم بجامعة القاهرة سنة (1374هـ/ 1955م)، نَظَم الشعر في سنّ مبكِّرة، (السرجاني، موقع قصة الإسلام،). إن النشأة البعيدة الأولى للشاعر في القرية - يبدو – أنها ساهمت في إضفاء نوع من الحدّة والتوتر في شخصيته، وذلك بتأثير شظف العيش و الانتقال الدؤوب وراء بين أرجاء القرية و التوجه لاحقاً إلى القاهرة بغية استكمال الدراسة، ثم ما اكتسبه الشاعر عن طريق المجالس العلمية لوالده أضفى بدوره أيضاً أبعاداً من الرحمة و الرقة على شخصيته، مما خلق فيه الاستعداد النفسي كي يتأهل لتسنّم دور قيادي ليتقدم الجموع طالباً تشتعل الحماسة في دمه وتتظافر المشاعر الجياشة، ليحيكها بدوره شعراً اجتمعت فيه الصراحة التي اكتسبها من نشأته الصعيدية من جهة، ومن جهة أخرى بدا واضحاً عليه تأثير الإسلامية التي تلقاها في البيت و القرية.

لقد ساهمت ظروف الشاعر التي كان يمر بها في تلك المرحلة المبكرة من حياته بما تضمنت من أفراح و أتراح، في تفتق شاعريته وجعلها وسيلة للصدع بالحق وترجمة الأمواج الشعورية العاتية التي كانت تعصف بأعماقه وتطلب منه بالضرورة أن يتخذ من منطلق واجبه الديني والقومي موقفاً يؤدي دوراً في التاريخ المعاصر .

تنوع إنتاج هاشم الرفاعي الشعرية ما بين شعر وطني منها ما خصصه للقضية الفلسطينية، وشعر عن جمال الطبيعة وأيام الصبا في بلدته (أنشاص الرمل)، وغيرها من الميادين الشعرية الأخرى، وكذلك أشعاره التي يدعو فيها إلى الوحدة العربية وإحياء اللغة العربية، وأشعار المناسبات الدينية وغير الدينية .وقد صُنّف ضمن كتاب الدعوة الإسلامية الداعين للعروبة والإسلام(السرجاني ، موقع قصة الإسلام). إن تنوع نتاجات الشاعر و تعدد الميادين و الأغراض التي وظّف فيها شعره، مؤشر واضح على شخصية تكوّنت وتقوّت مبكراً، ونفسية قد صقلتها التجارب وهيئتها لتحمل الصعاب.

أما عن وفاته فقد توفي هاشم الرفاعي في ريعان شبابه مقتولاً، وذلك في عام 1959م، وأقيم حفل تأبين الشاعر في قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة - ورثاه الشعراء، واستمع الحاضرون إلى صوته مسجلا قصيدته " رسالة في ليلة التنفيذ" (الطاهر، ، 17-18).

إن قصيدة "رسالة في ليلة التنفيذ" تعتبر من أشهر قصائد الشاعر هاشم الرفاعي، فقد جاءت مفعمة بالعاطفة الجياشة والمشاعر الصادقة، ولأنها جسدت حالة انسانية فيها الكثير من الألم والمعاناة فقد لاقت قبولاً واسعا في العالم العربي والاسلامي، وهي قصيدة موجودة في أعماله الشعرية الكاملة تتألف من أكثر من سبعين بيتاً، كتبت في آذار-مارس-١٩٥٥ ولها بقية طويلة في ديوان (جراح مصر) للشاعر، وكان ناشر المجموعة الأولى من شعر الرفاعي (محمد كامل حته) قد وضع لها مقدمة يوحي بأن القصيدة كتبت سنة 1958 وأنها قيلت بمناسبة أحداث العراق زمن عبد الكريم قاسم.. ولكن أصول هذه القصيدة توضح أن كتابتها كانت سنة ١٩٥٥ . (بريغيش، 1985، ،385).

لقد انصب تركيز الشاعر في القصيدة على حكاية شاب مكافح في سبيل مبادئه يقوده تفانيه من أجل قضيته إلى نهاية محزنة وهي تعرضه لحكم الإعدام، فتأتي القصيدة على شكل رسالة يبعثها إلى والده لتصور حقيقة المشاعر التي يشعر بها ذلك الشاب في أعماقه في الليلة التي تسبق تنفيذ الحكم عليه.

وقد مزج الشاعر أحاسيسه و مشاعره بالحكاية وأبان عن مواقفه حيال السلطة والظلم الذي تعرض له وعن رؤيته لمستقبل بلاده وأقرانه من الشباب بعد أن يقضي نحبه.

لقد كانت القصيدة بمثابة حكاية مكتملة الأركان من ناحية العناصر السردية فتضمن الزمان بشقيه الواقعي والنفسي وتضمن استرجاعاً واستباقاً، والمكان باعتبار السجن مكاناً مغلقاً وموحشاً ومعادياً، وكذلك احتوت على الشخصيات بدءاً من لدن السارد بوصفه الشخصية الرئيسية و الشخص المرسل إليه وهو الوالد وكذلك الأم، وكان لبعض الشخصيات الثانوية أيضاً حضور لافت مثل شخصية السجان و الجلادان و بائع الألبان. أما الحدث فقد تم سرده بصورة متتابعة تارة، وأخرى تداخلت صور السرد فيها. إلا أن تركيز الدراسة اتجهت نحو الأبعاد النفسية دون غيرها.

ولئن كان الشاعر قد عُرف بتوجهاته الإسلامية وبالروح الثورية التي شحنت قصائده بصورة عامة، إلا أن قصيدته موضع الدراسة هذه، قد لقيت إقبالاً كبيراً من القراء عموماً، والدارسون لها و النقاد خصوصاً، لما تمتعت بها من صدق المشاعر وتصوير الحالات الإنسانية والعواطف الجياشة، ولا سيما بوصفها صادرة إلى والد من ابنه الذي سيُعلق على أعواد المشنقة عما قريب

2.2. المنهج النفسي وعلاقته بالأدب

عند الحديث عن المنهج النفسي، يتجه الاهتمام بادئ الأمر إلى فرويد وتلامذته، إذ هم أول المؤصلين لهذا المنهج في العصر الحديث وأبرز المنظرين له – ربما - عبر التاريخ، فلقد بين فرويد بأن الفن هو الميدان الأوحد في الحضارة الحديثة الذي لا يزال محتفظاً بطابع القدرة المطلقة للفكر، ففي الفن وحده يندفع الإنسان تحت وطأة رغباته اللاشعوية ليشبعها ويحاول حل المشكلة عن طريق منهجه النفسي (سويف، 1981، 74). ولذلك فمن نافلة القول أن نقول بأن المنهج النفسي يستمد آلياته النقدية من نظرية التحليل النفسي لفرويد في مطلع القرن العشرين، وهو يعتقد بأن " السيرورات النفسية، بموجب اولى مقدمتي التحليل النفسي المثيرتين للاستهجان، هي في جوهرها لاشعورية، أما الشعورية منها فلا تعدو أن تكون أفعالاً منعزلة، شذرات من الحياة النفسية الشامل" (فرويد، 1995، ، 16). ويسمى أيضاً بـ المنهج (التحلسفي) كما أطلق عليه بعض الدارسين، حيث يُفسر على ضوء هذا المنهج السلوك الإنساني برده إلى منطقة اللاشعور. (وغليسي، 2007، ، 21).

إن الأديب عموماً، والشاعر خصوصاً، يكتب للتعبير عن حال معينة ، والعمل الأدبي يصور هذه الحالة أو هذا الهم الذي يعتمل في ذات صاحبهما، وبما أن الذات الإنسانية مكونة من وعي ولاوعي، يشكل فيها الثاني أكثر من ثلثيها، فعلينا أن نغوص في

أعماقها، في الأثر الادبي، والشعري، لنقف على مكوناته اللاواعية وحوافزه، ومن هنا الحاجة الماسة في هذا العمل إلى علم النفس...

إن المنهج النفسي في الدراسة الأدبية يقوم على أساس تطبيق معايير هذا العلم على النص موضوع النقد، ومن البديهي في هذه الحالة الاستعانة بنظرية فرويد و وأدلر ويونخ و لاكان وسواهم ممن أرسوا دعائم هذا العلم، ومع ذلم فلا بد من التمكن في الدراسة الأدبية أيضاً. (سقال والقزي، 2013، 3-4).

ومن الواضح -كما - يقول كارل يونج -أن علم النفس من حيث هو دراسة للعمليات النفسية، يمكن أن ديرس الأدب، مادامت النفس البشرية هي الرحمن الذي تتكون فيه شتى مبدعات العلم والفن، لذلك يُتوقع من البحث السيكولوجي أن يُفسر لنا أولاً طريقة تكوّن العمل الفني، وأن يكشف لنا عن العوامل التي تجعل من شخص ما فناناً،وبهذا يعالج علم النفس مهمتين منفصلتين بطريقيتين مختلفتين، بل إن الدراسة السيكولوجية لمضمون الآثار الأدبية، إذا كانت جادة، تعود بفائدة كبيرة على النقد الأدبي أيضاً(الدروبي 1981 ، 225-226)

والحقيقة أن استخدام المنهج النفسي ليس حكراً على الأدب بوصفه منهجاً تكثر الاستعانة به، وإنما " تستخدمه كل العلوم التي تجعل من السلوك الانساني وتطوره موضوعاً لها...وتميل المناهج النفسية إلى تقصي الأسباب التي تقف وراء الظواهر النفسية " (قاسم،1999، ،61-62). ولذلك يُعد المنهج النفسي في الدراسات الأدبية أمراً من الأهمية بمكان، بحيث لا يمكن الوصول إلى بعض الحقائق الجوهرية في أثناء الدراسة الأدبية للنص الأدبي ومُبدعيه إلا عن طريق المنهج النفسي.

وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا بأن الرابطة التي تشدّ الأدب بالنفس الإنسانية رابطة قوية، إذ" العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات، لأنه ليس هناك من ينكرها، وكل ما تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة ذاتها وشرح عناصرها، على أي نحو يرتبط الأدب بالنفس؟ أيستمد الأدب من النفس أم تستمد النفس من الأدب؟ أن أن العلاقة بينهما علاقة تبادل من التأثير والتأثر؟ " (إسماعيل، 1962، ،12).

وقد استثمرت الدراسات الأدبية حقائق علم النفس ومفاهيمه بكيفيات شتى، عبر مجالات مختلفة نذكر منها:

.1دراسة العملية الإبداعية في ذاتها (سيكولوجية الإبداع)؛ أي ماهيتها النفسية وعناصرها وطقوسها الخاصة.

ولعل الدكتور مصطفى سويف كان رائد هذا الاتجاه بكتابه (الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة)، وهو رسالة ماجستير نوقشت سنة 1948، ونشرها سنة 1951. ثم واصل صنيعه بعض طلبته كالدكتور شاكر عبد الحميد في كتاب (الأسس النفسية للإبداع الفني في القصة القصيرة)، والدكتورة سامية الملة (الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرح)،...وتشكل هذه الجهود " في الثقافة العربية نواة مدرسة لعلم نفس الإبداع."

.2دراسة شخصية المبدع (الاتجاه البيوغرافي أو سيكولوجية المبدع)؛ مع البحث في دلالة العمل الإبداعي على نفسية صاحبه.

ويمكن أن نذكر من رواد هذا الاتجاه في الممارسات النقدية العربية|:

عباس محمود العقاد (1889- 1964)، وإبراهيم عبد القادر المازني (1890- 1949)، ومحمد النويهي(1980-1917) ،...

.3دراسة العلاقة النفسية بين العمل الإبداعي والمتلقي (سيكولوجية التلقي أو الجمهور).

.4دراسة العمل الإبداعي من زاوية سيكولوجية (التحليل النفسي للأدب)؛ وهذا هو المجال الحقيقي للممارسة النقدية النفسانية التي يمكن أن نذكر من روادها: أمين الخولي و محمد خلف الله أحمد وعز الدين إسماعيل ويوسف سامي اليوسف و جورج طرابلسي و خريستو نجم.(وغليسي 2007، ، 23-24).

وعلى الرغم من كثرة الأدباء والشعراء الذين أفادوا من مبادئ علم النفس في نتاجاتهم الأدبية وظهرت الأبعاد النفسية في أدبهم، إلا انه " تجلت مبادئ وركائز نظرية التحليل النفسي في الدراسات العربية المعاصرة في كتابات جماعة الديوان – عبدالرحمن شكري، والمازني، والعقاد -؛ ويُعد عبدالرحمن شكري من أوئل (1886-1958) من أوائل الذين أفادوا من نظرية التحليل النفسي في دراسة الشعر" (دحروج، 2015، ،111). لكن الإشارة هنا على سبيل الريادة والسبق، وليس على سبيل التقصي.

كما يجدر بالقول ههنا" إن لظاهرة الإيقاع في النص الشعري تأثير غاية في الأهمية، فهي ليست بالجديدة، وإنما هي موغلة في الزمن " عرفها الإنسان وتعددت مظاهرها في اختلاف الليل والنهار، وفي حركات الكائنات قبل أن يعرفها في تكوينه الفطري و التي جسدها جسمه ونبرات صوته، أو في تعاقب الزفير عنده، وانتظام ضربات قلبه" (حساني، 2006، 13). و الحق أن لفظة الإيقاع أبعد أثراً من الاكتفاء بالوزن والقافية؛ فهي تشمل فنوناً أخرى لها وثيق الصلة بجرس الكلمات و الموسيقى الداخلية للقصيدة.

بل من قبيل الأواصر التي تشد الأدب وعلم النفس إلى بعضها أن بحور الشعر العربي لها ميزات عجيبة من حيث التجانس بين المواضيع و الإيقاع، ولذلك يحرص الشاعر المتمكن أن يختار البحر الأنسب من بحور الشعر لموضوعه وغرضه الشعري، وقد بنى

الشاعر هاشم الرفاعي : " قصيدته على تفعيلات بحر (الكامل التام) وهذا البحر يتكون البيت الشعري فيه من ست وحدات موسيقة (متفاعلن)، وهو من البحور الشعرية التي كثر دورانها في الشعر العربي (مصطفى، 2009، ،49). إن اختيار الشاعر هذا البحر لقصيدته يُعد اختياراً موفقاً ، لأن بحر الكامل " هو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركة، وفيه لون خاص من الموسيقى، يجعله -إن أريد به الجد – فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر، ويجعله إن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة، حلواً مع صلصلة كصلصلة الأجراس، ونوع من الأبهة يمنعه ان يكون نزقاً أو خفيفاً او شهوانياً، وهو بحر كأنما خلق للتغني المحض سواء أريد به جد أو هزل، ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصلها عنها بحال" (الطيب، 2013، ،302-303). وهذا كان منسجماً مع الموقف المفعم باللين والعاطفة والأشجان الإنسانية التي كانت تدور في قلب الشاعر و نفسه في تلك الساعة العصيبة التي وصفها في القصيدة.

وبهذا تتبين العلاقة التي تربط ما بين الناحية العروضية للقصيدة، وبين المعاناة النفسية التي كان الشاعر يكابدها، ويحاول إبرازها من خلال اللجوء الى الحروف التي تحمل في طياتها إمكانية التعبير على الأنين والحالة النفسية التي تعصف بالشاعر، من خلال بثه لما يشعر به في أعماقه، وإظهار ذلك في صورة فنية من خلال لجوئه إلى أنسب البحور الشعرية لغرضه، والركون إلى أفضل القوافي، و الروي الذي يراه مناسباً لقصيدته أكثر من غيرها.

3. التحليل النفسي لقصيدة " رسالة في ليلة التنفيذ" للشاعر هاشم الرفاعي

نستشف من العنوان بادئ ذي بدء، بانه تضمن بُعداً نفسياً، وذلك أن الشاعر يسعى ابتداء إلى وضع ركيزة من قبيل ما يسميه علماء النفس ببؤرة الانتباه، بغية إثارة المتلقّي ولفت انتباهه إلى بُعد نفسي ورسالة تنبثق كلماتها من الغور البعيد للنفس الإنسانية ، والحق إن استيحاء العنوان من المضمون و وضوح العلاقة بينهما يُعدّ من الأهمية بمكان، و " قديماً قيل الكتاب يُعرف من عنوانه، وهذا القول المأثور يحمل أكثر من دلالة، وينفتح على أكثر من جواب، محتمل، لان العنوان يعد مفتاح عالم الكتاب " (اشهبون، 2011، ، 9).

والعنوان في قصيدة الشاعر هاشم الرفاعي حمل دلالة نفسية واضحة، إذ نراه مشحوناً بالمشاعر الحزينة، ما بين ابن يكتب رسالته الاخيرة في الحياة قبل التفاف حبل المشنقة حول عنقه، وبين والد ستُسفر تباشير الصباح عن خبر ينزل عليه كالصاعقة، ألا وهو موت ولده وفلذة كبده، فهي إذاً رسالة مبعثها الأسى من حزين يتلوى مع أحزانه، إلى إنسان آخر سيورثه حزناً لا ينتهي بانتهاء الزمان، ولا يخفى ما لتلك الحالة من علاقة وثيقة الصلة بالنفس الانسانية، عندما يتعلق الأمر برحيل ابن عن الدنيا و والد يتلقى ذلك الخبر بحسرات حرّى.

يقول الشاعر في مطلع قصيدته:

أبتاه ماذا قد يخطُّ بناني　　　والحبلُ والجلادُ ينتظراني

هذا الكتابُ إليكَ مِنْ زَنْزانَةٍ　　　مَقْرورَةٍ صَخْرِيَّةِ الجُدْرانِ

لَمْ تَبْقَ إلاَّ ليلةٌ أحْيا بِهــا　　　وأُحِسُّ أنَّ ظلامَها أكفاني

سَتَمُرُّ يا أبتاهُ لستُ أشكُّ في　　　هذا وتَحمِلُ بعدَها جُثماني(بريغيش، 1985، ،358).

ومنذ الوهلة الأولى بل البيت الأول من القصيدة، تتكشف الحالة النفسية للشاعر، وتتمظهر من خلال غلبة الـ (الأنا الأعلى) عليه، فهناك كوامن نفسية عميقة تشده إلى البدايات الأولى له عندما كان معجباً بأبيه، معتبراً إياه القدوة والشخصية المرموقة التي يراه مستجمعاً في ذاته عناصر القوة تارة، والعطف و الرحمة فيه تارة أخرى. ولذلك نراه يعود أدراجه إلى بداياته البعيدة الأولى، يوجه خطابه الأخير إلى والدة كسالف عهده عندما كان يحبه ويعدّه مثالاً يحتذى.

كما ان اختيار حرف النون لتنتهي أبيات القصيدة به، أضفى على القصيدة لمسات عاطفية أعان الشاعر في توظيف خصائص ذلك الحرف ولاسيما في مثل هذا الغرض، لقد كان الشاعر "موفقاً في اختيار هذا الحرف روياً ليعزف عليه أوتار قصيدته، وأن هذا الحرف كان في غاية المناسبة لهذه التجربة الشعرية، حيث جاء ملائماً لحالة الشاعر النفسية، فالقارئ للقصيدة يتضح له أنها مشحونة بأجواء الأسى والحزن، فهي أشبه برثاء النفس، وهذا يناسبه - بلا شك - حرف النون لما فيه من أنين وألم وشيء من الانكسار، و – أيضا – لما يحدثه هذا الحرف في السمع من غنة جميلة تشيع الشجى والحزن والأنين، وهذا مما يتناسب مع جو القصيدة، وما فيها من كثرة آهات الشاعر والامه وأحزانه، فالقصيدة من النمط الشعري الحزين الباكي، ولم يكن ليتناسب مع هذه النغمة الباكية إلا حرف النون" (أبو غرارة، د.ت، ،1603).

وللسبب ذاته المتعلق بلاشعوره، نرى الشاعر هاشم الرفاعي متلطفاً في مناداة أبيه، يستخدم كلمة (أبتاه) بدلاُ من أبي المعهودة، لتكتمل لوحة الحنان والشوق والمحبة التي يرسمها بكلماته، وتكتمل – بالتالي- غلبة الانا العليا المغروزة في كيانه ونفسه منذ أيام الطفولة الأولى.

لقد كان الشروع مشوباً بإقدام يعتريه إحجام، إذ يُبدي الشاعر حيرة وقلقاً، أنّى له أن يتخير الكلمات ليُعبّر عما في مكنون نفسه من التعابير، وقد أزفت ساعة الفراق، حيث لا يعقبه لقاء ولا رجعة تارة أخرى، وحيث إنه لم يبق من العمر إلا ليلة واحدة حتى ظلامها يكاد يتمظهر في صورة كفن سرعان ما سيُدرج فيه الشاعر، فإنها تمر ثقيلة كئيبة ليُسفر في آخرها لا عن سرور وأمل، وإنما عن حمل والد - مثقل الكاهل بأعباء الحياة وآثار السنوات - لجنازة ولده على عاتقه.

وقد جاء أسلوب نداء الابن لأبيه بـ (أبتاه) مؤثراً لأنه اختزل التعبير واستغنى عن أداة النداء(يا) ليكون أبلغ في التعبير عن حالته النفسية المفعمة بالشوق واللهفة الصادرة منه إلى والده. كما أنه تمكن –بخيوط عاطفته - أن ينسج مشهداً أليماً يفصح عن مأساة إنسانية تنبع من حالة من الحالات الإنسانية والنفسية المؤثرة، إن استعمال الشاعر لكلمة (أحس) تضمنت دلالة نفسية عميقة تُنبئ عن حالة من الحزن تعصف في أعماق نفسه وتوجّس من المجهول يُهيمن عليه. ولكن استعماله لكلمة (ستمر) جاء عنواناً لليأس وتحقيقاً لما في جعبة الساعات القادمة من القضاء على حياته. وهنا يبدو ان قنوطاً يراود الشاعر وينتابه من هول الآتي، وذلك " هو الإحساس بالإغتراب النفسي والإنغماس في مظاهر فقدان القيمة وفقدان الأمل و استدماجهما" (طه وآخرون، 1989، ، 487).

وجدير بالذكر أن ننوه ههنا بأن قافية القصيدة والتي كان حرف الروي فيها عبارة عن حرف النون، فقد جاءت هي الأخرى منسجمة مع الغرض الشعري تماماً، وملبية للتعبير عن مضامين القصيدة كأفضل ما يكون، وذلك لأن حرف النون من الحروف الواضحة والسهلة و المتواجدة بكثرة في اللغة العربية، فمن خلاله يسيطر الشاعر على زمام التعابير، و يتمكن من الوصول إلى الإفصاح عن غرضه الشعري بيسر، يقول حسن عباس: " النون مستمدة أصلاً من كونها صوتاً هيجانياً ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن الألم العميق (أنّ أنيناً) " (عباس، 1998، ، 158).

ويواصل الشاعر حديث النفس المنبثق من الأعماق الحرّى، فيقول بأن هدوء الليل لا يبعث على الطمأنينة بحال، وإنما هو هدوء مُقلق بل قاتل، إذ لا غد سعيد سيُخلِفُهُ، والذّكريات السعيدة من الزمن الجميل تنهال على مخيلته المرهقة لتزيد من آلامه وتُضرم في أحشائه مزيداً من اللوعة والتألم، وكأنّ الليل بذلك الهدوء القاسي مأساة إضافية تُضاف إلى مأساة إعدامه فيكابد الحاضر، بينما يترقب حلول القادم :

اللَيلُ مِنْ حَولي هُدوءٌ قاتِلٌ   والذكرياتُ تَمورُ في وِجْداني (بريغيش، 1985، ،358).

إنه التأرجح بين الواقع والرجوع إلى الحلم، حلم اليقظة التي تحققت آماله فيه، وإن لم يكن حلماً شبيهاً بأحلام الذين يبحثون عن المال والجاه و المنصب، إنه حلم الموت وليس الحياة، فلم يكن الموت مما كان يتحاشاه أو يهابه، وها هو بعد سويعات ملاقيه.

ثم ينشد راحته فلا يجد في تلك اللحظات الأليمة ما يشفي غليله، إلا في تلاوة بضع آيات من القرآن مما حفظه في سالف عهده قبل الأسار، وإذا بالخشوع يدب في إثرها إلى كيانه، وكأنه يشعر بذلك الشعور لأول مرّة في حياته، مع كونه مؤمنا طيلة حياته السابقة، إلا أن اللذة الحقيقية لتلاوة القران لم يكد يشعر بها إلا في تلك الليلة الكالحة حيث انتهت به الحال إلى تلك الزنزانه وحيداً فريداً، ويبدو أمراً مقصودا إظهار الشاعر سروره وتناسيه لأهوال الزنزانة في غمرة سروره بتلاوة القرآن و الخشوع الذي يهطل على روحه جرّاءها، قائلاً:

وَيَهُدُّني أَلمي فأنْشُدُ راحَتي   في بِضْعِ آياتٍ مِنَ القُرآنِ

والنَّفْسُ بينَ جوانحِي شفَّافةٌ   دَبَّ الخُشوعُ بها فَهَزَّ كَياني

قَدْ عِشْتُ أُومِنُ بالإلهِ ولم أَذُقْ   إلاَّ أخيراً لذَّةَ الإيمانِ (بريغيش، 1985، 358).

إنه مزيج من الابتهاج و والألم، والفرح والحزن، ولكن السرور الذي يهبه له قراءة القرآن يغلب القنوط الذي قد يعتريه ويحل محله الخشوع والطمأنينة، ويلاحظ في الأبيات الثلاثة السالفة صورتان متغايرتان تتصارعان: الصورة الأولى وصفه لحالته النفسية بـ عبارة (ويهدني ألمي) وهو مشهد يعلوه اليأس والقنوط، ويبدو عليه الانهيار من هول ما يرتقبه. أما الصورة الثانية فكانت كالعاصمة التي تداركت القاصمة؛ سكينة وراحة نفسية تنهال على قلبه، وتشعّ بين جوانح الشاعر رغم هول الموت واقتراب المنية، سعادة يحوزها الشاعر من مكان ظاهره البؤس، وباطنه من قِبلِه الراحة و الشعور بالنشوة النفسية. وكأن الشاعر يقول بقول موجز: تلاوتي للقرآن سكبت في نفسي السكينة، و خففت عني مصيبة الموت.

إنه حالة مما يطلق عليه علماء النفس بصراع الإقدام - الإحجام ، وهو موقف يقع فيه الفرد عندما يتعرض لمثيرين أو يستثار فيه دافعان أحدهما يرضيه سلوك معينوالآخر يرضيه سلوك مخالف فتقع الشخصية في حيرة بين إرضاء هذا وتجاهل ذاك، أو إرضاء ذاك و تجاهل هذا (طه ورفاقه، 1989، 249). فكأن في نفس السجين دافعان متغايران لا يلتقيان، ففي لحظة من اللحظات تشعر الشخصية بنوع من التردد فيغدو مُحجماً تارة، ومُقدِماً تارة أخرى، هو أشبه ما يكون بصراع المشاعر المنبثقة من منطقة اللاوعي في شخصيته. ولكن بسبب ارتباط السجين بلاشعوره نرى أن القصيدة تعبر عن عنه أصدق تعبير.

ثم يشكر الشاعر بأحاسيسه المرهفة وصفاء سريرته الجلاوزة والجلادين، ويرفض تناول طعامهم، فهو من جهة لا يشعر بالجوع، لأن طبيعة النفس الإنسانية في تلك الأوقات - وقد حمّ الوداع وأزف الرحيل – لا تستسيغ تناول الطعام، بل تنفر منه، ومن جهة أخرى يستحضر محبة أمه ويستعيد أيامها الجميلة وهي تصنع للعائلة المجتمعة حول الخوان الطعام الطيب، المختلف تماماً عن الطعام المرّ في السجن الذي يأتي به السجان، وقد صبغت يده بدم الضحية، ثم يذكر استكمالاً للمشهد المفعم بالحنان العائلي، شقيقيْه الذيْن كانا يتسابقان للوصول إلى السفرة التي هيأتها الأم الحنون، وهنا نرى أن الشاعر باستحضاره لصورة الأم والاشقاء، يستعين بالصور المحفوظة في مُخيّلته وذكرياته الغابرة، يسترجع تلك الصور بوصفها جزءاً من فعالياته الحسية التي عايشها، ثم يربط تلك الصورة المستجلبة من الماضي بعضها ببعض، ليصنع منها أداة تعبيرية يعبر عن حالته النفسية التي يمر بها أصدق تعبير، فيقول:

شكرا لهم أنا لا أريد طعامهم   فليرفعوه فلست بالجوعان

هذا الطعام المر ما صنعته لي أمي   ولا وضعوه فوق خوان

كلا ولم يشهده يا أبتي معي   أخوان جاءاه يستبقان

مدوا إليّ به يدا مصبوغة   بدمي وهذه غاية الإحسان (بريغيش، 1985، ،358).

أول ما يثير انتباه المتلقي هنا، هي الطلاقة التي يعبر بها الشاعر عن أفكاره، وذلك كما يقرر خبراء التحليل النفسي، هو " الانسياب السريع للأفكار في ألفاظ وعبارات سليمة وواضحة، وتقاس باختبارات لها الكثير من الإجابات، وقد عرفها ثرستون في بادئ الأمر بأنها عامل طلاقة الكلمات" (طه وآخرون، 1989، ،266). إن تلك الطلاقة ما كان ليتأتّى له، لولا تلك القناعة التي يجعل المحكوم عليه بالإعدام ثابت الجنان، مؤمناً بقضيته، لا يتعلثم في التعبير عما هو مؤمن به في أي حال من الأحوال.

و يبدو لنا أن الشكر الموجه للسجانين، ليس شكراً على حقيقته، وإنما هو من باب قول الشيء وإرادة نقيضه! ذلك أن الشاعر يشعر بألم عميق، وإحساس مرير، ووحشة يريد أن يواريها من خلال قوله (شكراً لكم)، ونظير هذا ما جاء في مرثية نزار قباني لزوجه بلقيس وهو في أوج تألمه موجهاً خطابه لقاتليها:

" شكراً لكم..

شكراً لكم..

فحبيبتي قُتلت..وصار بوسعكم أن تشربوا كأساً على قبر الشهيدة" (قباني، 1997، ج4، ،9). وقد يمكن القول أن نفس الشاعر كانت صافية و طاهرة من الغلّ والحقد حتى على سجّانيه، وأن الكراهية والشحناء حتى في هذه الساعة الأليمة والشعور بالظلم لم تعرف للولوج إلى نفسه سبيلاً، بل شكرهم وسوّغ رفضه لتناول ذلك الطعام بمرارته المعنوية، وأنه لم تصنعه يدا أمه الحنون.

إن انطباع الشاعر على طعام السجن الذي وصفه بالمرارة بوصفه معنى مقصوداً، أوحت إليه من لاشعوره عابراً حاجز المنطق ومتخطياً منطقة الشعور الآني، ليجري مقارنة بين طعامين بينهما اختلاف شديد وبون واسع، طعام السجن و طعام أمه، فلقد أسعفته الذكريات بمشاهد مؤثرة من الماضي الجميل، فهو " يتذكر تلك المرحلة السعيدة من مراحل طفولته ويمزج بينها وبين واقعه في تلاؤم وانسجام، ليستحضر هذا التفاوت البالغ بين طعام كانت تقدمه له امه الحنون، وكان أخواه يتسابقان إليه في مشهد أسري سعيد، وبين هذا المشهد السعيد الذي يعايشه" (أبو غرارة، د.ت. 1625).

إنّ الصمت الذي ران على أجواء السجن في تلك الليلة كان صمتاً أحيَتْ في الواقع غريزة الخوف لديه، فهو وإن حاول كتمان ذلك الخوف ومواراته، لكي لا تظهر في كلمات قصيدته، إلّا أنّ استقراء الحالة النفسية لديه يُفصح عن خلاف ذلك، إنه الخوف من موت الأنا، والتعرض لثلم كرامته ليُحدث لديه انفعالاً، ولكنْ " يُعدُّ انفعال الخوف فطرياً لأن الإنسان يزوّد به عند الولادة " (الداهري وكبيسي، 1999، ،107). ، كان أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، لكن هذا الصمت القاتل يقطعه بين الأونة والأخرى، رنين السلاسل التي تعبث بها أصابع السجان، بينما يرنوا من كوّة الباب إلى الضحية بعينين كأنهما عينا شيطان، ولكنه على الرغم من ذلك لا يكاد يشعر بالحقد تجاهه ولا يراه جديراً بأن يُضمر له الحقد لأنه هو الآخر ضحية لأسياده الجائرين، وهو في سبيل كسب لقمة العيش لعياله، مرغم على مزاولة ذلك العمل، وذلك قمة السماحة وصفاء السرية أن يعتذر المظلوم لأعوان الظالم ويده التي يبطش بها، بل يسترسل في الاعتذار له فيصفه بطيب الأخلاق تماماً كوالده، او حتى لو كان يمتلك يراعاً كيراع الشاعر لربما رثاه أو فاضت عيناه بكاء وحزناً على ما آل إليه مصير الشاعر الشاب، وهو وفق هذا الاعتبار ينتمي إلى ما يسمى في علم النفس بالشخصية الحنونة او العاطفية، الذي يتجنب جرح مشاعر الآخرين بل ويتألم معهم على آلامهم ويحزن معهم على أحزانهم. على أنّ الباحث لا يوافق الشاعر على استرساله في الاعتذار لذلك الجلاد الذي لولاه وأمثاله من أعوان الظالمين لما تمكنوا من السيطرة على رقاب المظلومين وإحالة حياتهم إلى جحيم! يقول:

والصَّمتُ يقطعُهُ رَنينُ سَلاسِلٍ   عَبَثَتْ بِهِنَّ أَصابعُ السَّجَّانِ

ما بَيْنَ آونةٍ تمُرُّ وأختها يرنو إليَّ بمقلتيْ شيطانِ

مِنْ كُوَّةٍ بِالبابِ يَرْقُبُ صَيْدَه وَيَعُودُ في أَمْنٍ إلى الدَّوَرَانِ

أَنا لا أُحِسُّ بِأيِّ حِقْدٍ نَحْوَهُ ماذا جَنَى فَتَمَسُّه أَضْغاني

هُوَ طيِّبُ الأخلاقِ مثلُكَ يا أبي لم يَبْدُ في ظَمَأٍ إلى العُدوانِ

لكنَّهُ إنْ نامَ عَنِّي لَحــظةً ذاقَ العَيالُ مَرارةَ الحِرْمانِ

فلَرُبَّما وهُوَ المُرَوِّعُ سحنةً لو كانَ مِثْلي شاعراً لَرَثاني

أوْ عادَ مَنْ يدري إلى أولادِهِ يَوماً تَذكَّرَ صُورتي فَبكاني(بريغيش، 1985، ،359) .

إن اعتذار الشاعر عن أفعال الجلاد، وعدم شعوره بالحقد حياله، أمر غريب تُنبئُ عن نفسية متسامحة، تنداح بين جَنَباتها الطِيبة والمعاني الإنسانية النبيلة، حيث إنه لا يبدو عليه ظامئاً للعدوان أو إلحاق الأذى به، والأعجب أنه يتوقع من السّجّان حال عودته لبيته وأولاده، أن ينتابه البكاء وتتناثر دموعه حزناً عليه، وهذا لا ريب يعكس حالة نفسية مطمئنة وقلباً ظاهراً انتشر فيه نور الإيمان، " وقد جرت الإشارة في الروايات الأدبية بصورة خاصة إلى نوعين من السجانين: طيب وشرير، يلتقي الاثنان في أنهما موظفان عند السلطة، وفي أن ثقافتهما السياسية محدودة وضحلة، ولكنهما يختلفان في الجوهر الإنساني، إذ يملك الأول حساً إنسانياً حياً لم يستطع السجن قتله، في حين قُتل الحس الإنساني عند الثاني بعد أن نجحت السلطة في جعله قطعة من آلتها القمعية" (الفيصل، (1983، ،49). ولعل الشاعر هنا نظر إلى السجان من المنظار الأول، فلم يستطع أن يحمل عليه حقداً، وفي ذلك استجابة تلقائية لإيحاءات الأنا الأعلى، منبعه اللّاوعي الذي يستمدّ منه الشاعر مُثُله العليا، سعياً لتحقيق الكمال، وتحقيق المعاني الأخلاقية التي تلقاها صغيراً، ووهبته إياه المجتمع الذي عاش فيه و ترعرع بين أفرادها. وربما كان للتربية الدينية التي تلقاها الشاعر في عائلته الذين عُرفوا بالالتزام الديني، وكذلك انخراطه مع الشباب الملتزم بالدين في ذلك الوقت، الأثر الواضح في بثّ تلك المشاعر المتسامحة المبثوثة في أجواء القصيدة.

وفي مقطع آخر من القصيدة، نراه في تلك الساعة العصيبة يدقق في كل شيء، تجول في نفسه الخواطر والذكريات وتتخذ من مساربها مسرحاً للاسترجاع تارة و الاستشراف أخرى، ثم يُثبّت بصره على النافذة التي في الجدار الأصم، فيرى فيها من خلال قُضبانها الغليظة معنى الحياة التي يقترب من الرحيل عنها، ثم يتصور من خلال تأمل عميق حال الثائرين فلا يرى إلا الوجوه الضبابية التي تصور غليان الأحزان في أعماقهم، وهو الشعور نفسه الذي يكتنف الجميع حتى لو كتموا ولم يفصحوا، وهنا يسير الزمن سيراً بطيئاً حتى كأن الساعات فيه تقارب الزمن الطويل! وقد حاول الشاعر هنا أن يصور ما يدور في اخيلة الثائرين لأنه واحد منهم ويعرف آمالهم و أهدافهم، وتعدّى ذلك بأن سعى جاهداً أن يصور مشاعر الناس و ما تعتمل في نفوسهم من الغليان، رغم أنها لا تبدو في الظاهر كذلك. فهو يقول:

وَعلى الجِدارِ الصُّلبِ نافذةٌ بها معنى الحياةِ غليظةُ القُضْبانِ

قَدْ طالَما شارَفْتُها مُتَأَمِّلاً في الثَّائرينَ على الأسى اليَقْظانِ

فَأَرَى وُجوهاً كالضَّبابِ مُصَوِّراً ما في قُلوبِ النَّاسِ مِنْ غَلَيانِ

نَفْسُ الشُّعورِ لَدى الجميعِ وَإنْ هُمُو كَتموا وكانَ المَوْتُ في إِعْلاني(بريغيش، 1985، ،359).

ليس في مقدور الكتمان مواراة الغرائز الكامنة في لاشعور الإنسان، فلا بُدّ ستنبثق في لحظة من لحظات انفعاله، أو حين التعرض لموقف من مواقف الحياة، وهنا يقوم الشاعر باسترجاع الصور الحسية التي عاشها في الماضي بقوله: (قد طالما شارفتها متأملاً) ، يستعين الشاعر بخياله، ليربط الماضي بالحاضر بما فيهما من الصور، ليستحدث من الصورة الخيالية القديمة صوراً يستجمعها، تكون مستحدثة من أجزاء قديمة وسابقة.

هذا وقد حوى المقطع بعض الكلمات التي ترتبط مع الحالة النفسية للشاعر بصلة وثيقة، من قبيل: (معنى الحياة - متأملاً، الاسى- وجوهاً كالضباب - قلوب الناس – الشعور- كتموا). فهو في قرارة نفسه يعيش غارقاً في التأمل، يتطلع للكشف عن معنى حقيقي مختلف للحياة، مُمعناً في الوجوه التي تعلوه الضباب، والقلوب التي تغلي بما فيها من أحزان.

ويأبى الشاعر في تصوير هذه الحالة الإنسانية المُترعة بالمشاعر، إلا أن يكون صادقاً مع نفسه والآخرين أشدّ الصدق، ليقول: إن الهواجس انتابته في صورة همس خافت بين الجوانح، وكأنه يصبح في شك من مبادئه وما ناضل في سبيله قائلاً: ما الذي جعلني انساق مع هذه الثورة التي غاب عنها العقل و التدبير؟ أوَ ما كان خيراً لي ولأهلي لو لزمت جانب الصمت وآثرتُ السلامة، والنيران التي تضطرم بين جوانحي، سرعان ما ستُطفؤها دمائي التي ستسيل على أيدي الجلادين، وفؤادي النابض من أجل تغيير هذا العالم إلى الأفضل، هو الآخر سيتوقف نبضه إلى الأبد، فماذا يا ترى فعلت وركْبُ الظلم سائر لا يقوى على إيقافه أحد، وموت شاة واحدة في قطيع عرمرم لا يؤثر بحال عليه، إنه همس الندامة إذن، في لحظة ضعف انسانية تريد أن تنغّص على الشاعر سروره بافتداءه النفس العزيزة التي بين جنبيه من أجل قضية يؤمن بها، هواجس تجول في رأسه وتجعل منه ساحة فسيحة لصراع نفسي مرير، بل إن ما يشعر به هنا هو اليأس بعينه، عندما يصارع ظنونه فتغلبه ليعتقد بان موته لن يعيق مسيرة الظلم بل سيبقى الظلم كالسيف متسلطاً على رقاب الناس :

وَيدورُ هَمْسٌ في الجَوانحِ ما الَّذي بِالثَّوْرَةِ الحَمْقاءِ قَدْ أَغْراني؟

أَوَ لَمْ يَكُنْ خَيْراً لِنفسي أَنْ أُرَى مثلَ الجُموعِ أَسيرُ في إِذْعانِ؟

ما ضَرَّني لَوْ قَدْ سَكَتُّ وَكُلَّما غَلَبَ الأسى بالَغْتُ في الكِتْمانِ؟

هذا دَمِي سَيَسِيلُ يَجْرِي مُطْفِئا ما ثارَ في جَنْبَيَّ مِنْ نِيرانِ

وَفؤادِيَ الموَّارُ في نَبَضاتِهِ سَيَكُفُّ في غَدِهِ عَنِ الْخَفَقانِ

وَالظُّلْمُ باقٍ لَنْ يُحَطِّمَ قَيْدَهُ مَوْتي وَلَنْ يُودي بِهِ قُرْباني

وَيَسيرُ رَكْبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَضِيرُهُ شاةٌ إِذا اْجْتُثَّتْ مِنَ القِطْعانِ(بريغيش، 1985، ،359) .

في هذه الأبيات تجسيد لصراع يحدث داخل النفس ما بين الأنا والهو والأنا الأعلى، صراع وإن كان مؤقتاً يزول عما قريب، لكنه يستمد مادته من اللاوعي لدى الشاعر، ويمكن من خلاله استشفاف الحاله النفسيه له، " إنه الصراع الذي ينشأ داخل النفس عندما يحبذ جانباً منها أمراً معيناً بينما يرفضه جانب آخر، أو عندما يكون إمكانيات الفرد محدودة ولديه أكثر من دافع ملح في نفس الوقت الذي لا يستطيع فيه إلا أن يشبع واحداً فقط منها" (طه وآخرون، 1989، ، 250). لا ريب إن صعوبة الموقف يخلق في داخل الإنسان صراعاً أشبه بحرب معنوية تندلع أوارها في داخل النفس الإنسانية، تشتد تارة وتخفت أخرى، وكل ذلك وفقاً لما يعتريه من مظاهر الحزن على الحال و السرور للمآل الذي ينتظره بعد أن تفرق الروح الجسد.

وقد استعمل الشاعر في المقطع السالف جملة من الكلمات تمتُّ بِصِلة وثيقة إلى الناحية النفسية للإنسان من قبيل: (همس- الجوانح – أغراني- نفسي- الأسى- الكتمان – جنبي – فؤادي – نبضاته – الخفقان). وفيها إبراز لحدة الصراع الحاصل في أعماق النفس في تلك الأوقات العصيبة. إنها مناجاة الشاعر مع نفسه في الساعة الأخيرة التي تسبق الموت، كأنها مناقشة بين شخصين يفكران بطريقتين مختلفتين، ولكنه يسند هذا الحديث إلى نفسه التي تأمره بالسوء ومخالفة المبادئ والندم على فعل الخير و الحسنات. ويتعلق بمباهج الدنيا في لحظة تشدهآ أصرة الطين وجاذبيته التي خُلق منه فتخور همته! إنها أشبه بوسوسة الشيطان لتثبيط العزيمة ، وهيهات أن تفلح النفس في ذلك المسعى، إنها إذاً مونولوج افتراضي لم يحدث على أرض الواقع فعلاً، بل هو انفعال وجداني تخلقه الحالة الاستثنائية التي تمر بها الشخصية هنا، ذلك أن الحياة برمّتها موضوعة من أجل غاية أجلّ و أعظم .

ثم يسرد عدداً من التقابلات في صورة الإنكار على النفس في مسعاها الخائب، فأنفاس المظلوم الحرّى ستظلّلُ أفق الظالمين بدخان مَقيت، ولا تدعهم يهنئون براحة البال والعيش السعيد، والجروح التي أحدثتها سياط الظالمين ستتحول إلى شيء مختلف تماماً، فلسوف تتبدى مثل تباشير فجر مُشرق وقَسَمات إشعاع تبدد ظلام ليلهم الحالك، وسيّان ما بين دموع السجين ودماء الشهيد، فهما يلتقيان في صناعة الغد المشرق والفجر الجديد، وفي ذلك يتجلى إيمان الشاعر بقضيته، وتمسكه بمبادئه، يقول الشاعر:

هذا حَديثُ النَّفْسِ حينَ تَشُفُّ عَنْ   بَشَرِيَّتي وَتَمُورُ بَعْدَ ثَوانِ

وتقُولُ لي إنَّ الحَياةَ لِغايَةٍ   أَسْمَى مِنَ التَّصْفيقِ للطُّغْيانِ

أَنْفاسُكَ الحَرَّى وَإِنْ هِيَ أُخمِدَتْ   سَتَظَلُّ تَعْمُرُ أُفْقَهُمْ بِدُخانِ

وقُروحُ جِسْمِكَ وَهُوَ تَحْتَ سِياطِهِمْ   قَسَماتُ صُبْحٍ يَتَّقِيهِ الْجاني

دَمْعُ السَّجينِ هُناكَ في أَغْلالِهِ وَدَمُ الشَّهيدِ هُنَا سَيَلْتَقِيانِ(بريغيش، 1985، ،360).

يتجلى في هذا المشهد عُقدة البطل، الذي تتبدّى للشخصية بوصفه المنقذ الذي ستغدو سيرته نبراساً يهتدي به المناضلون، و يستقي من تضحياته المكافحون، فهو إنسان مُغامر بحياته من أجل الآخرين، يتحمل المخاطر ولو أدى به ذلك إلى الموت نفسه، فهو من أجل مُثُلِه العليا، وتحقيق الأهداف التي يُناضل من أجلها، والتي استقرت في لاوعيه، مستعد أن يجود بأعز ما يملك و هي روحه.

إن المشهد السابق يتضمن ما يسميه علماء النفس بالشحن النفسي، إذ المعنويات لدى السجين عالية، وهناك توظيف متكامل الأركان للمعاناة لتحويلها إلى ما يُضادها، فتغدو - بدل أن تؤدي إلى انهيار صاحبها - طاقة ترفد صاحب المعاناة بالقوة المعنوية و الشحن النفسي، وهي في أصلها " طاقة غريزية عموماً، ومصدرها الهو أولاً، ويتجمع أكبر قدر منها في الأنا، ويوظفها الأنا بتوجيهها إلى موضوعات خارجية، والشحن الإيجابي من مثل تصور الموضوع تصوراً يجعله محبوباً " (الحفني، 2005، ج2، ،63).

إنها تلك الصورة المشرقة لنفس تنبض بالإيمان، ويشيع في أجوائها الأمل، صورة يغيب عنها اليأس والإحباط تماماً، يستمد القوة من لاشعوره، ومن القيم التي عمل في هداها، حتى إنه من فرط الأمل والإيمان بالقضية التي يَلقى في سبيلها ما يَلقى، تتبدّى له الجروح النازفة مثل قسمات الصبح التي ستنجلي عما قريب.

إن الشاعر في هذه اللحظة الفاصلة من حياته، لا يكتفي بالصمود أمام الموت والاستهانة بسَكَراتِه، وإنما يغدو - بما يحمله من نفس أبيّة تسكنها الشجاعة – مُوجّهاً ومُنظّراً، كأنه خطيب يعتلي منبره مزمجراً، مُزيحاً الستار عن فلسفة الثورة والدماء التي تسيل من أجل الحرية، وتَسقي الرُّبا والوِهاد، لينبلج عن صبح مشرق، بعد ليل ران عليه الظلام و الصمت الرهيب.

كما يقدم الصورة تلو الأخرى، لقوة الشعوب الكامنة التي لابد من اللجوء إليها واستعمالها لاقتلاع الظالمين، فالشعب هو العاصفة التي ستهبُّ على الظالمين وتُغرق سفنهم، وهو النار التي تتلظّى في باطن الأرض، و التي ستثور في صورة بركان، وهو السيل الجارف الذي لا يصدّه شيء، ولا يقف بوجه شيء، إنها القوة النفسية التي يتمتع بها كاتب الرسالة، وهي المستمدة مما يسميه علماء النفس بـ(الأنا الأعلى) أو القيم الدينية العليا المهيمنة على الأنا والهو دونه، مما يُلفت الانتباه ويجدر بالوقوف حيالها طويلاً.

حَتَّى إِذا ما أُفْعِمَتْ بِهِما الرُّبا   لم يَبْقَ غَيْرُ تَمَرُّدِ الفَيَضانِ

ومَنِ الْعَواصِفِ مَا يَكُونُ هُبُوبُهَا بَعْدَ الْهُدوءِ وَرَاحَةِ الرُّبَّانِ

إِنَّ احْتِدامَ النَّارِ في جَوْفِ الثّرَى   أَمْرٌ يُثِيرُ حَفِيظَةَ الْبُرْكانِ

وتتابُعُ القَطَراتِ يَنْزِلُ بَعْدَهُ   سَيْلٌ يَليهِ تَدَفُّقُ الطُّوفانِ

فَيَمُوجُ يقتلعُ الطُّغاةَ مُزَمْجِراً أَقْوى مِنَ الْجَبَرُوتِ وَالسُّلْطانِ(بريغيش، 1985، ،360) .

إن هذه الأبيات تبدو كأنها ترجمة للمكونات النفسية التي استقرت في نفس الشاعر من زمن بعيد، إذ إن اقتلاع الطغاة والصراع الذي ينبغي خلقه للتصدي لهم، هو من ترسبات قديمة تظهر الآن أثناء زَهوِ الشعور بالانتصار. إنها خَلَجات نفسه التي كانت مختفية في لاشعوره، وها هو الآن ينبثق ليدعم قوة الأنا، و تصبح سبباً في مقاومة الواقع والرضى به، ولولا قوة الأنا هذه، ما كان بإمكانه تَقَبُّلَ هذا الواقع والصمود بوجهه.

وعلى الرّغمِ منْ أن صراعاً يُمكن استشفافه في أبيات القصيدة يدور في نفس كاتب الرسالة، صراع يتجاذبه من جانبين؛ جانب يهيمن عليه الأسى الخافي والخشية من أن يُصور نضاله على عكس حقيقته، وجانب يسمو فيه على تلك الهواجس التي تجذبه من الداخل وتنتصر عليها، فهو كأي صاحب رسالة شريفة نراه، يعلنها صريحة على الملأ، دونما وجل ولا خشية: إنه لا يأبه أن يدخل التاريخ وتذكره الأجيال بطلاً قومياً أو فارساً شجاعاً تتغنى بإبائه الشعراء، فسواء كان ذاك أم أنه أُدرِج في كَفَنِ النسيان بعد وقت يسير، أو حتى لو عُرف بعد موته متآمراً أو على النقيض من ذلك، هادماً لقلاع الظلم والأوثان، فكل ذلك لا تُشكل في أولوياته واهتماماته مساحة كبيرة، بل ما يستحق أن يُشاد به ويقدم في سبيله التضحيات، هو ألا يتجرع كأس الذلة والهوان، فليس ذلك في إمكانه البتّة، ويكفيه فخاراً أنه ما أراد لأمته إلا أن يعيش في ضياء يساهم في لعن الظلام من أجله، وهذا من صفات الذين يتمتعون بنفس عزيزة، فهم يحبون الحياة طالما كانت بسؤدد ورفعة رأس، أما غير ذلك، فالموت أهون بل ألذّ من حياة يُنكّس فيها الأبي رأسه مرغماً، يقول الشاعر:

أَنا لَستُ أَدْري هَلْ سَتُذْكَرُ قِصَّتي أَمْ سَوْفَ يَعْرُوها دُجَى النِّسْيانِ؟

أمْ أنَّني سَأَكونُ في تارِيخِنا   مُتآمِراً أَمْ هَادِمَ الأَوْثانِ؟

كُلُّ الَّذي أَدْرِيهِ أَنَّ تَجَرُّعي   كَأْسَ الْمَذَلَّةِ لَيْسَ في إِمْكاني

لَوْ لَمْ أَكُنْ في ثَوْرَتي مُتَطَلِّباً غَيْرَ الضِّياءِ لأُمَّتي لَكَفاني

أَهْوَى الْحَياةَ كَريمَةً لا قَيْدَ لا إرْهابَ لا اْستِخْفافَ بِالإنْسانِ

فَإذا سَقَطْتُ سَقَطْتُ أَحْمِلُ عِزَّتي يَغْلي دَمُ الأَحْرارِ في شِرياني(بريغيش، 1985، ،360) .

وهنا يراود الخوفُ الشاعرَ، وتغزو نفسَه الوساوس، ذلك انّ " الخوف غريزة ثابتة، ولا يمكن القضاء عليه، ولا يمكن تصور إنسان لا يخاف، وإن تعددت وتنوعت بواعث الخوف " (عويضة، 1996، ،114) ولكن نتيجة الصراع بين اليأس و الأمل، تحسم في نفس الشاعر لصالح الأمل والإعراض عن وساوس اليأس في الساعات الأخيرة.

ويلاحظ في المقطع السابق أيضاً ظهور الأنا العليا، حيث نرى كاتب الرسالة في ذلك الوقت العصيب، منشغل البال بما سيُقال عنه بعد موته، ويبدو أنه يُولي رأي المجتمع والأعراف الاجتماعية هالة من الاهتمام والاحتفاء، مع أنه يُنكر ذلك أحياناً، لكنه في حالة اللاوعي فيما يبدو يقول غير ذلك، ولذلك نراه يختار في آخر المطاف الانسياق وراء مبادئه، وتفضيلها على غيرها من الاعتبارات ولو كان ثمنه الموت الزؤام.

ويواصل توجيه الخطاب الأخير لأبيه بوصفه مثله الأعلى، ويناديه بكلمات ملؤها التّحنان والمودّة العارمة المعبرة عما في جنبات نفسه من المحبة والتبجيل له قائلاً: أبتاه، بعد أن يطلع الصباح وينشر نوره على أرجاء المعمورة، وبعد أن تسمع زقزقة العصافير على الغصون، وتسمع نداء بائع الألبان وهو يدقُّ بابَنا، إعلم أنني في تلك اللحظة قد فارقت الحياة، و تحولت إلى جثة هامدة يتدلّ جسدي على أعواد المشنقة، إنه نعي الذات ورثاء النفس قُبيل حلول المنية، وتصوير للحزن الذي يعترك في مسارب نفسه المنتظرة للموت عما قريب، حيث يصورُ ذلك المشهد بريشة الرسام الحزين، صورةً مرئيةً مُجسّدة معبرة موغلة في التعبير:

أَبَتاهُ إنْ طَلَعَ الصَّباحُ عَلَى الدُّنى وَأَضاءَ نُورُ الشَّمْسِ كُلَّ مَكانِ

وَاسْتَقْبَلُ الْعُصْفُورُ بَيْنَ غُصُونِهِ يَوْماً جَديداً مُشْرِقَ الأَلْوانِ

وَسَمِعْتَ أَنْغامَ التَّفاؤلِ ثَرَّةً تَجْري عَلَى فَمِ بائِعِ الأَلبانِ

وَأتى يَدُقُّ- كما تَعَوَّدَ- بابَنا سَيَدُقُّ بابَ السِّجْنِ جَلَّادانِ

وَأَكُونُ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ مُتَأَرْجِحاً في الْحَبْلِ مَشْدُوداً إِلى العِيدانِ(بريغيش، 1985، ،361).

إن شخصية بائع الألبان هي شخصية حقيقية يُشركها الشاعر في مشهد من مشاهد القصيدة، لتكتمل الصورة النفسية من خلال الربط بين النص الأدبي و بين اللاشعور، وهو إنما ينْهَلُ من مَعينِ خيالاته الخصبة لإكمال الصورة الشعورية التى يعيشها ويبرزها من خلال انفعالاته في هذا المشهد.

إن مشهد بائع الألبان المتكرر وصوته المحبَّب الراسخ في ذاكرته البعيدة وهو ينادي بأنغامه الجميلة الباعثة على التفاؤل بميلاد يوم جديد، تحفه البركة و تتربع على ساعاته السعادة، لكنه يربطه بمشهد آخر سيكون متزامناً معه، و لكنه على النقيض سينجم عنه مشهد مختلف لن يحمل للوالد الحزين و الوالدة كسيرة القلب ما يفرحهم، بل على العكس سينغص عليهم أفراحهم ليحولها إلى أتراح، وربما أراد من خلال الربط بين المشهدين ، أن خبر نعيه وإن كان في ظاهره مؤلماً، إلى أنه من جهة أخرى، أشبه بالأغاريد التي كان بائع الألبان ينشرها في ارجاء الحي يبعث على التفاؤل، فكذلك خبر إعدامه فيه تباشير غد سعيد ينتظر المعدوم.

و يعود الشاعر في تموجات مشاعره في تضاعيف القصيدة، ليسرد شعوره بالزهو والفرحة، ويسلّيّ نفسه بأن الحبل الذي سيلتف حول رقبته ويُنهي حياته، لم تصنعه يدٌ مصرية، وإنما حِيكتْ خيوطه في مكان يَشعّ حضارة ويفيض علماً ، جيء به بمعونة الخونة من بني جِلدته، وفي ذلك عَزاء لوالده، وتخفيف لمصابه في فقد فلذّة كبده، ويستمر في مواساة والده في أن ابنه ما أُدين في أمر مَشين، فلطالما علمه والده الوفاء وأورثه حب الوطن، وما فعل الابن أكثر من الاستجابة لما أُسديت إليه من توجيهات في تلك المحبة المقدسة:

لِيَكُنْ عَزاؤكَ أَنَّ هَذا الْحَبْلَ ما صَنَعَتْهُ في هِذي الرُّبوعِ يَدانِ

نَسَجُوهُ في بَلَدٍ يَشُعُّ حَضَارَةً وَتُضاءُ مِنْهُ مَشاعِلُ الْعِرفانِ

أَوْ هَكذا زَعَمُوا! وَجِيءَ بِهِ إلى بَلَدي الْجَريحِ عَلَى يَدِ الأَعْوانِ

أَنا لا أُرِيدُكَ أَنْ تَعيشَ مُحَطَّماً في زَحْمَةِ الآلامِ وَالأَشْجانِ

إِنَّ ابْنَكَ المَصْفُودَ في أَغْلالِهِ قَدْ سِيقَ نَحْوَ الْمَوْتِ غَيْرَ مُدانِ

فَاذْكُرْ حِكاياتٍ بِأَيَّامِ الصِّبا قَدْ قُلْتَها لي عَنْ هَوى الأَوْطانِ(بريغيش، 1985، ،361).

أنّ الانفعالات الشخصية لا تكادُ تبارح مشاهد القصيدة، فنراه أبداً متأرجحاً ما بين انفعال الغضب رافضاً الواقع، و انفعال الخوف المنبثق من رغبة دفع الأذى، وانفعال السرور المتأتيّ من كل ما من شأنه أن يحقق له الأمن النفسي و السعادة الروحية. ومن عجب أن الابن الذي سيموت عما قريب ويُبتلى بموته والداه، نجده يُبادر إلى تعزية والده بمصابه، وكأنما ينظر إلى مصاب والده به مُجسّداً أمام ناظريه، فيتفاعل معه ويقوم بواجب العزاء ولمّا يُفارقُ الحياة! وفي ذلك الموقف تَسامٍ واضح، وانتصار بيّن على عُقدة حب الحياة والتعلق بمباهجها.

و يُستشفُّ من الأبيات كذلك، صورة متخيلة يأتي بها الشاعر من لاشعوره، ليوظّفها، ويوجّه بها إدراكاته الحالية و تصوراته للأشياء من حوله، إن الخيال الذي يرفده بصور الماضي حين كان صبياً، يرفده أيضاً بمزيد من القوة المعنوية والنفسية ليسمو إلى تحمّل مُصابه، بل يسعى كي يتحول إلى مصدر للقوة المعنوية و مصدر جَلَدٍ وصبر لرفاقه وذويه.

وليس من سجية الابن البارّ إنهاء هذه الرسالة، من غير أن يخصّ أمّه بخطاب يليقُ بمحبّتها و حسناتها التي لا تحدّها الحدود، ولا تقدر على الوفاء بها الكلمات، فهو مُوقن أنها ستَبكيه بكاء مُرّاً، وستأكل قلبَها الحسرة على موت فلذّة كبدها، ولكنها على الرغم ن ذلك، ستضطر أن تواري حزنها العارم عن الجيران، وحينذاك يطلب من أبيه أن يطلب له منها الصفح، فذلك غاية ما يأمله ويتمناه، ذلك أن ذكرياتها ما زالت تعتلج في صدره، وحنانها ورحمتها ما كانت لتغيب عنه في هذه اللحظة الحرجة، فكم كانت حريصة أن تراه وقد تزوج بنت الحلال تطلبها له بنفسه لتذوق تلك الفرحة التي طالما انتظرتها وتُذيقها إياه، وذلك من تمام رحمة الأمهات بأبنائهنّ، إذ يسعين غلى ضمان مستقبل أبنائهنّ إلى ما بعد مفارقتهنّ الحياة أيضاً! ولكنها ستواري تلك الأماني الجميلة التراب مع جسد ابنها ، وكأنه يتساءل: أي طاقة ستحتاج تلك الأم الرؤوفة لكي تقوى على احتمال ذلك الحزن الثقيل، وإنما وجه الرسالة إلى أمه بصورة غير مباشرة، لفداحة الخَطب وثقل النبأ عليها، ورحمة ومراعاة بحالها، إذ لعلّها لا تحتمل وقْع النبأ فتَلقى حتفَها قبل حتفه:

وَإذا سَمْعْتَ نَحيبَ أُمِّيَ في الدُّجى تَبْكي شَباباً ضاعَ في الرَّيْعانِ

وتُكَتِّمُ الحَسراتِ في أَعْماقِها أَلَمَاً تُوارِيهِ عَنِ الجِيرانِ

فَاطْلُبْ إليها الصَّفْحَ عَنِّي إنَّني	لا أَبْتَغي مِنَها سِوى الغُفْرانِ

مازَالَ في سَمْعي رَنينُ حَديثِها	وَمقالِها في رَحْمَةٍ وَحنانِ

أَبُنَيَّ: إنيِّ قد غَدَوْتُ عليلةً	لمر يبقَ لي جَلَدٌ عَلى الأَحْزانِ

فَأَذِقْ فُؤادِيَ فَرْحَةً بِالْبَحْثِ عَنْ	بِنْتِ الحَلالِ وَدَعْكَ مِنْ عِصْياني

كانَتْ لها أُمْنِيَةً رَيَّانَةً	يا حُسْنَ آمالٍ لَها وَأَماني

وَالآنَ لا أَدْري بِأَيِّ جَوانحٍ	سَتَبيتُ بَعْدي أَمْ بِأَيِّ جِنانِ (بريغيش، 1985، ،361).

إن عُقدة محبة السجين لوالدته هنا، تكاد تطغى على المشهد، بحيث إنّ كلماتها غدت كالجرس يرنُّ في مسامعه، ويستعين بالخيال الخصب من لاشعوره ليمده بصور متخيلة من غابر الأيام عندما كانت تدرّ عليه من حنانها وتسعى جاهدة أن تصنع لابنها السعادة بأي ثمن. إن العاطفة الكامنة في أعماقه أبت إلا أن تظهر في صورة كلمات معبرة عن تلك العقدة القديمة من المحبة التي ربما رضعها منها منذ أيامه الأولى.

بالنسبة للالفاظ، فقد جاء المقطع السابق حافلاً بألفاظ مشحونة بالمشاعر من قبيل: (نحيب أمي – تبكي - تكتم الحسرات - تواريه عن الجيران - الصفح الغفران - رنين حديثها - رحمة و حنان - أذق فؤادي، أمنية ريانة، ...الخ) وهي ألفاظ رقيقة تنسجم مع الموقف الذي تهيمن عليه العواطف الإنسانية، والحقيقة أن المشهد يبدو كلوحة متكاملة الأركان، مرسومة بريشة الأحزان وألوان الأسى، والكلمات تتراءى منبثقة من قلب يعتصره الألم، دون أن يفقد الأمل حتى في تلك الساعة العصيبة.

عجيب أن يشعر المرء بالأمل، ويحلم بانتصار الضياء وانهيار شريعة الظلم، وتمزّق رايته بيد الجوع الثائرة، وهو يسير نحو الموت لا يفصله عنه إلا سويعات قليلة، أو ربمّا غدا منه قاب قوسين أو أدنى، وأعجب منه أن يشعر بالسرور إذا ذكره بعد موته من أسماهم بحلفاء الهوان، ثم يختم المشهد على أمل اللقاء في ظلال عدالة مقدسة وميزان لا يظلم في ظله أحد، وفي ذلك دلالة واضحة على التأثير الكبير للإيمان و قوته الكامنة في النفس الإنسانية، إذا تمّ توظيفه في دروب الخير :

هذا الذي سَطَرْتُهُ لكَ يا أبي	بَعْضُ الذي يَجْري بِفِكْرٍ عانِ

لكنْ إذا انْتَصَرَ الضِّياءُ وَمُزِّقَتْ	بِيَدِ الْجُموعِ شَريعةُ القُرْصان

فَلَسَوْفَ يَذْكُرُني وَيُكْبِرُ هِمَّتي	مَنْ كانَ في بَلَدي حَليفَ هَوانِ

وَإلى لِقاءٍ تَحْتَ ظِلِّ عَدالَةٍ	قُدْسِيَّةِ الأَحْكامِ والميزانِ(بريغيش، 1985، ،360).

وهنا نلاحظ ظهور الأنا باعتباره الجانب الظاهري من الشخصية، فهو متأثر بالواقع من حوله من جهة، وباللاشعور من جهة أخرى، هو حريص أن تتوافق تصرفاته مع مبادئه والأنا الأعلى ليحقق السمو الروحي الذي يؤمن به، وحرصه على توجيه تلك الرسالة الحاسمة إلى أبيه من دون الناس جميعاً، دليل على علاقته الوطيدة وتأثره بالأنا الأعلى الذي يتجلى هنا في والده الذي أعجب به، فمُذ كان صغيراً طري العظم، يرى أباه جامعاً بين القوة و العطف الأبوي معاً.

إن نفس الشاعر مع اقتراب الفناء من الجسد، نراها من خلال الأبيات تسمو، إنها نفس ممتلئة أملاً لا يعرف اليأس طريقاً إليها، وذلك دأب القلة الذين يُخلدهم التاريخ بما بين ضلوعهم من تلك النفوس الأبية، التي لا تضعف حتى عندما عند حلول المنية

والرحيل الحتمي عن مباهج الدنيا. إن " التفكير في خلود الاسم بعد موت صاحبه، هو أرفع درجات السعادة لأن صاحبه لا يحفل بالموت بقدر ما يحفل بخلود اسمه ومجده...وهكذا تتخذ السعادة - في أواخر أيام الإنسان – تلك الصورة التي كانت تتخذها اللاوعي إبان الطفولة، فبدء الحياة و نهايتها يغلفهما الظلام، أما منتصف الحياة فيسطع بنوره كشمس الضحى!" (مراد، ب ت، 188).

وجدير بالملاحظة كذلك أن الشاعر في ختام قصيدته أضفى على المشهد النفسي إشراقة، وأبان عن نفس مطمئنة ملؤها السكينة والرضا بقدر الله، واليقين بجميل الذكر وبقاء السمعة الحسنة بعد الممات، ولا ريب أن كل ذلك كان منبثقاً من إيمانه بلقاء حتمي سيجمع الجميع في ظل العدالة الإلهية المطلقة، التي ليس فقط لا يُظلم فيها أحد، بل ويعود الحق بكل معانيه إلى نصابه، ويُقاد لكل مظلوم من ظالمه .

4. الخاتمة و النتائج

- تمخضت هذه الدراسة الملخّصة لقصيدة هاشم الرفاعي " رسالة في ليلة التنفيذ" عن جملة من النتائج:
- ظهر الشاعر في قصيدته بوصفه صاحب قضية يتفانى في سبيلها، قضية برز عليها الطابع الديني و السياسي و القومي أيضاً، ولم يبدو نادماً على شيء رغم أن كفاحه من أجل قضيته تلك قاده إلى المقصلة.
- القصيدة التي كتبها الشاعر على لسان شاب مشارك في الثورة ضد الطغاة جاءت مفعمة بالحالات الإنسانية ومشحونة بالطيبة والحنان والمحبة للوالدين والعائلة والثوار. كما كانت ترمز إلى حالتين مناقضتين في ظاهرها، حالة الرقة و غلبة الحالات الإنسانية و العواطف الجياشة، وحالة الحدة من خلال خصية السجين السياسي الذي لا تلين له قناة و لا يعطي الدنية لا في دينه و لا في شخصيته الإنسانية المجردة.
- وقد استطاع الشاعر أن يُجمّل صورة الثائر على الظلم ويزينه من خلال وصفه بالشجاعة و الإباء و الصبر, والوقوف ليس فقط صامداً مستهزءاً بالمنية، وإنما مُنظّراً يبعث الرسائل التوجيهية للثوار بعده، وهو واقف على شفير القبر، يستقبل الموت من ههنا، و يعطي الدروس على درب الثورة من ههنا.
- كما أن صراعاً واضحاً تم رصده لدى الشاعر بين ما يسميه علماء النفس بـ (الأنا و الهو و الأنا الأعلى) فلقد ظل متطلعاً إلى إرضاء قيمه العليا والعمل من أجلها، والمتمثلة بدينه وثوابته الوطنية، دون أن يكترث بذاته، معرضاً عن نفسه التي بين جنبيه صفحاً.
- القصيدة كانت مليئة بالمشاعر الإيجابية حتى تجاه القائمين على تعذيب كاتب الرسالة وحتى حيال الذين اقتادوه إلى المقصلة، وذلك نابع ن التربية الدينية التي تلقاها في نشأته الأولى.
- استعمل الشاعر في القصيدة الفاظاً تدل على حرارة المشاعر وإيجابيتها وانتشرت تلك الالفاظ في أجواء القصيدة كثيراً، كما أن اختياره لبحر القصيدة وقافيتها كان أمراً مدروساً واختياراً موفقاً.
- مع أن لغة القصيدة جاءت في مجملها صريحة تحمل في تضاعيفها رسالة واضحة، إلا أنها تضمنت كذلك عدداً من الرموز تارة والاستعارات أخرى، كما ظهر على الشاعر بعض التردد والإقدام و الإحجام أحياناً، مما أفاض على أجواء المشهد مزيداً من الترقب و الأبعاد النفسية و العاطفية.

5. المصادر والمراجع

1.5. الكتب:

- أبو غرارة، الدسوقي محمد، (بدون تاريخ)، **نونية هاشم الرفاعي " رسالة في ليلة التنفيذ" دراسة بلاغية تحليلية،** جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، بايتاي البارود.
- إسماعيل، عزالدين،(1962)، **التفسير النفسي للأدب**، القاهرة، دار الثقافة.

- اشهبون، عبدالمالك، (2011) **العنوان في الرواية العربية دراسة**، دمشق، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع,
- بريغش، محمد حسن، (1985)، ديوان **هاشم الرفاعي المجموعة الكاملة**، الزرقاء، مكتبة المنار.
- الحفني، عبد المنعم، (2005)، **موسوعة عالم علم النفس**، بيروت، دار نوبليس.
- الداهري، صالح حسن أحمد، و وهيب الكبيسي، 1999، **علم النفس العام**، إربد، دار الكندي للنشر والتوزيع.
- دحروج، محمد، (2015)، **مناهج النقد الأدبي المناهج الكلاسيكية**، عمّان، دار البداية ناشرون وموزعون.
- الدروبي، سامي، 1981، **علم النفس والأدب**، القاهرة:، دار المعارف.
- سقال، ديريزة، وديزيرة القزي، 2013، الإبداع الأدبي والتحليل النفسي، بيروت، دار كتابات.
- سويف، مصطفى، 1988، الاسس الفنية للإبداع النفسي، القاهرة، دار المعارف.
- الطاهر، حامد، هاشم الرفاعي، القاهرة، مكتبة الآداب,
- طه، فرج عبد القادر، وأبو النيل، قنديل، ومحمد، وعبدالفتاح، 1989، **معجم علم النفس والتحليل النفسي**، بيروت: دار النهضة العربية.
- الطيب، عبدالله، (2013) ، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، الكويت، مطبعة حكومة الكويت.
- عباس، حسن، 1998، **خصائص الحروف العربية ومعانيها –دراسة -**، القاهرة، إتحاد كتاب العرب.
- عويضة، كامل محمد محمد، 1996، **علم نفس الشخصية**، بيروت، دار الكتب العلمية.
- فرويد، سيغموند، ترجمة، جورج الطرابيشى، 1995، **مدخل إلى التحليل النفسي**، بيروت، دار الطليعة.
- الفيصل، سمر روحي، (1983) **السجن السياسي في الرواية العربية**، دمشق، منشورات إتحاد الكتاب العرب.
- قاسم، محمد محمد،(1999)، **المدخل إلى مناهج البحث العلمي**، بيروت، دار النهضة للطباعة و النشر.
- قباني، نزار، 1998، **الأعمال الشعرية الكاملة**، بيروت: منشورات نزار قباني.
- مراد، حلمي، ب ت، مركب النقص والعقد النفسية، القاهرة، المؤسسة العربية للطبع و النشر و التوزيع.
- مصطفى، محمود، (2009)، **أهدى سبيل إلى علمي الخليل**، بيروت، المكتبة العصرية.
- وغليسي، يوسف، (2007)، **مناهج النقد الأدبي**، بيروت، جسور للنشر والتوزيع .

2.5. الدوريات والإنترنيت

- السرجانى، راغب، **هاشم الرفاعي**، موقع قصة الاسلام، تاريخ الإطلاع: 19-12-2019.
- حساني، أحمد، 2006، **الإيقاع ودلالته في الشعر الجاهلي**، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي مقدمة إلى جامعة الجزائر.

هۆنراوەی (نامەیەك لە شەوی لە سێدارەداندا)ی هاشم الرفاعی شیکارییەکی ڕەخنەیی و دەروونی

إحسان برهان الدين أمين

کۆلێژی پەروەردەی بنەڕەت، زانکۆی هەڵەبجە-هەڵەبجە

ihsan.amin@uoh.edu.iq

پوختە

ئەم توێژینەوەیە تایبەتە بە شیکردنەوەی هۆنراوەی نامەیەك لە شەوی لەسێدارەداندا لە نووسینی شاعیری میسری هاشم الرفاعی لە ڕۆشنایی ڕێبازی دەروونیدا، هۆنراوەکە کە زیاتر لە شەست دێڕە شیعر پێکهاتووە، هەست ونەستی زیندانییەك بەرجەستە دەکات کە حوکمی لەسێدارەدانی بەسەردا دراوەو ئەو نامەش کە بەهۆنراوە دەینووسێت شەوێك پێش جێبەجێکردنی حوکمەکە بۆ باوکی دەینێرێت، هۆنراوەکە زۆر هەست و سۆزی مرۆیی لە خۆگرتووە کە هەڵقوڵاوی ئەو دیمەنەیە شاعیر دەیەوێت بەرجەستەی بکات، کە ئەوەش وای کردووە هۆنراوەکە شیاوی ئەوە بێت لە ڕووی دەروونییەوە تیشکی بخرێتە سەر وشیبکرێتەوە، پێش ئەوەش پوختەیەك لە ژیانی شاعیر خراوەتە ڕوو لە کاتی لەدایکبونی تاکو لە دنیا دەرچوونی وهەروەها لە ڕووی عەروز وهۆنراوەزانییەوە تیشك خراوەتە سەر قەسیدەکە بە مەبەستی دەرخستنی ئەوەی تا چەند کێشی هۆنراوەکە لەگەڵ ناوەڕۆکەکەیدا تەریب وگونجاوە.

کلیلە ووشەکان: ڕێباز، ڕەهەندی دەروونی، شیکاری، ئاخاوتنی خود، هەست ونەست ، پرەنسیپ ، زانستی کێشی شیعر.

A poem (A Message on the Night of Execution) by Hashem Al-Rifai, a critical psychological study

Ihsan Burhanuldeen Ameen

College of Basic Education, University of Halabja-Halabja

ihsan.amin@uoh.edu.iq

Abstract

For the poet Hashem Al-RifaiThis research deals with the analysis of the poem "A Message on the Night of Execution" by the Egyptian poet Hashem Al-Rifai according to the psychological method. From the human feelings and the raging emotions emanating from the situation that was depicted, which made it worthy of correcting the lights of study on it from a psychological point of view, and it was discussed before that about the poet's life from his birth to his death, as well as highlighting the poem in terms of presentation to show the extent of harmony The poetic sea with the content addressed by the poet.

Keywords: Method, psychological dimension, self talk, feelings, Prosody.